(طنين) السؤال المزمن في الثقافة العربية 2/2

قدمنا في مقاربة سابقة قراءة من داخل النص لرواية " طنين" (لسيف الإسلام ابن سعود) ، ونستكمل في هذه المقاربة قراءة النص من خارجه ، وهي قراءة تنهض على آلية التأويل والتفسير ، والرواية تبدو ملتبسة بدءاً من عنوانها " طنين " هذا العنوان المختصر البسيط الذي يمكن ربطه بشخصية بطل الرواية (خالد بن سعود) فهذا البطل في صغره وأثناء حصار (إبراهيم باشا) للدرعية أصابته شظية في وجهه ؛ جعلته يشعر على الدوام بطنين في أذنه التي فقد جزءاً منها ؛ ولذا فقد أطلق عليه العامة ومنافسوه (أبو طنة)، لكننا أمام كل هذا السرد الروائي - الذي تهيمن عليه إعادة قراءة التاريخ - لا يمكننا الركون إلى تفسير " أبي طنة " ، فالطنين من حيث اللغة هو: صوت النحل ، وهو أزيز دائم ممتد ، وهو خارج الأذن وليس داخلها ، ومن ثم فهو أقرب لمنطق من يسترق السمع عن قصد وليس مجرد السمع العفوي ؛ أي أن صاحبه ينصت لشيء يريد استبيانه وتحديد مصدره بوضوح ، فإذا ربطنا بين صفحات التاريخ الواسع وشخوصه العديدة ، وصراعاته المتتالية ، ومنطق ابن خلدون في فلسفة التاريخ ، وبين الصراع الذي كان (خالد ابن سعود) أحد شهوده وفاعليه ، وبين (سيف الإسلام) - بوصفه راوياً محايداً- يسعى إلى تقديم تفسيره الخاص لأزمة النهضة العربية منذ مبتداها في القرن الثامن عشر وحتى الآن ؛ ندرك أن "طنين" هو أكثر العناوين دلالة على أجواء نص حافل بصراعات تاريخية شهدتها الجزيرة العربية.

ولعل الإهداء لا يقل التباساً وغموضاً عن العنوان ، إذ إن الكاتب يهدي عمله الذي تجاوز أربعين وثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط إلى خالد ، ولا نعرف هل المعني هنا (خالد بن سعود) بطل الرواية ؟ الذي لن يستفيد شيئاً من الإهداء ولا من وصايا الكاتب ؛ لأنه أصبح جزءاً من تاريخ يمكن الاستفادة من وقائعه ولا يمكن تغييرها ، أم أنه خالد آخر ؟ قد يكون أحد أبناء المؤلف أو صديقاً له ، أم أن خالد هنا بمعناه اللغوي الدال على الأزلية والدوام ؟ ، لكن النص أيضاً يحاول التمويه فلا يكشف من يعنيه بخالد الإهداء حين يسوق عدة فقرات تبدأ " إلى كل من " ، وجميعها أفكار لا تبعد عن شخص بطله (خالد بن سعود) ولا تخصه وحده ؛ لأنها تفيد العموم ، فتظل أحلاماً إنسانية مهمة تراود الطامحين في كل زمان ومكان .

ولا تقف علاقة الالتباس عند الإهداء والعنوان ، بل النص ينفتح على تأويلات لا حصر لها ، فالتاريخ يتواتر وتتداخل أحداثه ، وينبث في مستويات النص كله ، بدءاً من شخصية البطل (خالد بن سعود) التي تتوازى مع (عبد الله الصغير) آخر أمراء بني أمية في رحيله من الأندلس إلى المغرب ، فقد شهد خالد سقوط الدرعية وضياع ملك أبيه ورحيله إلى القاهرة ، كما شهد ضياع ملكه هو في الرياض وهجرته مرغماً إلى

الكويت ثم مكة خوفاً من ملاحقة (فيصل بن تركي) ورجاله له ، حتى زوجته وأهلها تركوه يرحل بابنه الصغير الهزيل استعطافاً لقلوب خصومه لحظة الانتقام .

كما تمتد علاقات الالتباس إلى دور البطولة نفسه في العمل ، فالأماكن والشخصيات والأحداث تتنازع البطولة ، فالقاهرة بتاريخها وسحرها تتوازى مع الدرعية والأستانة ، كما أن الأحداث في القاهرة والقسطنطينية تفرض نفسها على أحداث الجزيرة سواء في الدرعية أو الرياض أو مكة ، ومن ثم كان لا بد أن يُقدِّم (سيف الإسلام) تلخيصاً تاريخياً باهراً لكل من هذه العواصم ونشأتها وأحداثها وملوكها ، ويداخل القارئ الريب أحياناً بأن المؤلف يكتب التاريخ الراهن لحياة بطل النص (خالد بن سعود) ، ولولا أن دفة السرد يهيمن عليها الأخير لتوهمنا أن البطولة لأحد اثنين : والي مصر (محمد علي ، أو ابنه إبراهيم) ، بل إن السارد يفاجئنا بمحبته الشديدة للقائد الألباني الذي حدَّث مصر وجعلها قوة مؤهلة لوراثة الإمبراطورية العجوز ، وهي علاقة ملتبسة بالطبع ؛ لأن (محمد علي) هو من أعطى الأوامر لجيوشه بالقضاء على الدولة السعودية ورجالها وأسر من بقي منهم ليقيموا في القاهرة إقامة جبرية ، لكنه أيضاً الأب الروحي الذي غرس المدنية الحديثة في العالم العربي ، وهو نمط الحضارة الذي حلم به (خالد بن سعود)، على نقيض علاقته بالسلاطين العثمانيين الذين أظهرهم في قمة الضعف والحماقة واللهو ، ولا نعرف أي الأحداث التي يمكننا القول إنها تحمل العقدة الدرامية في النص ، فجميعها أحداث مؤثرة ، فحين يطلب الخليفة العثماني من (محمد علي) القضاء على الدعوة الوهابية فهذا حدث مهم ومؤثر في بنية العمل ، ولكننا لا نرى أثره بشكل قريب ومباشر ، وحين تفرض الدول الغربية على (محمد علي) معاهدة لندن 1840م، فهذا حدث لا يخص خالد بن سعود ، لكن انسحاب القوات المصرية من الرياض هو الذي قضى على أحلامه في الدولة السعودية الثانية لإقامة نظام اقتصادي لدولة قوية حديثة ، وبالتالي فالسارد لم يكن أمامه سوى أن يفسح للحدث البعيد أهمية خاصة وتفاصيل شديدة التعقيد تتوازى مع أهمية الحدث القريب وتفاصيله ، وتظل هذه العلاقة متعددة في مستوياتها وتمنح نص " طنين" ، أبعاداً مشرعة لكافة التأويلات على مستوى البنية العميقة ، فنحن نفاجأ ببنية نصية قديمة في إطار حديث ، حيث اتخذ الكاتب فكرة الرسائل شكلاً لبنية عمله الروائي ، (فخالد بن سعود) المراقب في مكة يكتب رسائل لأهله وأصدقائه في مصر والجزيرة وغيرها ، لكن هذه الرسائل لا تصل ؛ لأن عيون الدولة العثمانية هي التي تتسلمها ، وتجمعها في حوزتها ، وحين يموت خالد وابنه مشاري لا يبقى أمام هذه العيون سوى إنهاء مهمتها بدفن جثمانه ثم تسليم كل متعلقاته إلى رئيسهم في مكة الذي يرسلها بدوره إلى العراق ومنها إلى الباب العالي في الأستانة ، لكن هذه العيون تتجاوز مهمتها حين تنتهك خصوصية الرسائل ، وهنا نقرأ معهم هذا النص المكون من سبع رسائل ، وجميعها مرسلة إلى صديقه القديم (حمد بن محيمل) الذي يقيم في عاصمة العربان الرياض في الدولة السعودية الثانية ، وبالتالي

فكل فصل "رسالة" تبدأ بالسلام واسم المرسل إليه وتنتهي بالسلام واسم المُرسل ، وكثيراً ما يجيء في نهايتها ملحوظة عن الحالة التي يعانيها المرسل من طنين أو فتق أو حديث عن الأحوال الصحية لابنه مشاري ، فالبنية من حيث الشكل هي بنية الرسائل بشكلها المعتاد ، لكنها من حيث المتن تتنوع إلى عدة آداب أخرى ، كأدب الرحلات حين يصف رحلته من الدرعية إلى القاهرة ، أو من القاهرة إلى الأستانة ، أو من القاهرة إلى الرياض ، ومن الرياض إلى الكويت ، ومن الأخيرة إلى مكة ، ويغلب على النص في هذه الرحلات وفرة المعلومات فيما يخص الأحوال الاجتماعية ، ودقة الوصف للأماكن التي تنقل خلالها .

لكن العمل في مضمونه الأكبر ينتمي إلى الأدب الملحمي حيث الحروب والمعارك والجيوش وقيام دول وانهيار أخرى ، وتحمل الرواية كغيرها من الأعمال الملحمية أخطاء تراجيدية لكل شخصياتها ، (فخالد بن سعود) رجل مثالي حالم يذهب إلى عاصمة ملكه على مدافع المصريين ، ومن ثم ينهار الحلم بمجرد رحيل المدافع ، و(محمد علي) يبني حضارته لخدمة الجيش ، ومن ثم تنهار الحضارة بتقليص الجيش وتوقف الفتوحات ، ومثلما كانت مثالية (خالد بن سعود) سبباً في فشل مشروعه فإن طموح (محمد علي) العسكري كان سبباً في نهاية ملكه ، ومثلما كان هذا الخطأ عاملاً من عوامل النصر، فقد كان أيضاً سبباً للهزيمة والنفي والموت ، أما آخر العناصر الملحمية في النص فهي وجود البطل والبطل الضد، (فخالد بن سعود) نقيضه (فيصل بن تركي) ، و(محمد علي) والعرب نقيضهما أوروبا والباب العالي .

ويبقى التساؤل الذي هدف إليه (سيف الإسلام) عبر هذا العمل الملحمي يثير مزيداً من الحيرة أمام سؤالنا الحضاري ، وهو السؤال الأزلي منذ صوبت الحملة الفرنسية مدافعها إلى مصر ، ويستفيق العرب جميعاً من غفلتهم وتأخرهم على حضارة مدنية حديثة ، حضارة لا يقوم فيها الدين بدور القائد ، وكلما أوجعتنا الأحداث ونحن نراقب الآخر يبتعد عنا مسافات ضوئية حضر السؤال الوجودي بلا إجابة ، وهو سؤال بلا ريب كان حاضراً في ذهن (سيف الإسلام) حين شرع في كتابة " طنين " ، وربما كان هو الشرارة التي أشعلت الفتيل ، فجاء كل هذا التواتر التاريخي الحضاري عبر ملحمة مليئة بأسئلـــة عميقة وحادة .